

# أَحْيَاءُ النَّحْوِ

لِأَبِرَاهِيمَ مَصْطَفَى

(تَوْنِي ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م)

الطبعة الثانية

الطبعة الأولى ١٩٣٧

الطبعة الثانية ١٤١٣ : ١٩٩٢ القاهرة

# تقديم الكتاب

للأستاذ الدكتور طه حسين بك

هذا كتاب سيراه الناس جديداً ، وما أرى أنهم سيتلقونه بما تعودوا أن يتلقوا به الكتب من الدعة والهدوء . وما أحسبني أخطئ إن قدرت أنهم سيدهشون له ، وأن كثيراً منهم سيضيقون به ، وقد يتجاوزون الضيق إلى الخصومة العنيفة والإنكار الشديد ، لأن الكتاب جديد كما قلت ، في أصله وفي صورته ، وهو من أجل ذلك يخالف كثيراً جداً مما ألف الناس ، وقد يغير كثيراً جداً مما ألف الناس . فلا غرابة في أن يلقوه بالدهش ، وفي أن يثور به الثائرون . ولكنني مع ذلك لا أقدمه إلى الناس كما أقدم شيئاً جديداً بالقياس إلى ، فإن عهدي به قديم ، وإني له متصل . ولست أجاوز القصد إن قلت إني لقيته لقاء الصديق ، واستمعت له كما أستمع لحديث الصديق ، في كثير من الحب والحنان

(ج)

والوفاء . فهو يذكرني أكثر أطوار حياتي العلمية ، منذ  
أخذت أطلب العلم صبيا وشابا إلى الآن . ذلك أنه كتاب  
نشأ مع عقل صاحبه ، وتطور بتطوره ، واختلفت عليه  
الصروف ، كما اختلفت على صاحبه الصروف ، ثم خرج منها  
كما رأيته وكما سيراه القراء ، قويا صلبا متينا ، لا يعرف  
الضعف ولا الفتور ، ولا يعرف الخور ولا لين القناة .

أنا قديم العهد به ، ألقاه الآن لقاء الصديق ، لأني قديم  
العهد بصاحبه ، ما لقيته قط إلا امتلأت نفسي بهجة ورقة ،  
وحنانا ، لأني أرى فيه خير ما مربى من أطوار الحياة ،  
وشر ما مربى من أطوار الحياة أيضا . وأراه الصديق الأمين  
والأخ الوفي ، في أطوار الخير والشر جميعا ؛ وأرى معه هذا  
الكتاب يتحدث إليّ به ، ويجادلني فيه ، ويلج على في الحديث  
والجدال . فلا يبلغ الحاحه مني مللا ولا سأمًا ، وإنما يثير فيّ  
رغبة مجردة إلى المناقشة والحوار .

وما رأيك في أنني أعرف إبراهيم منذ آخر الصبا وأول  
الشباب ، حين كنا نلتقي في حلقات الدرس في الأزهر الشريف

فنسمع لشيوخنا ، ثم نلتقى بعد الدرس فنعيد ما كانوا يقولون  
نكبر أقله فنستبقيه في أنفسنا ، ونصغر أكثره فنعرض عنه  
إعراضا ، أو نتخذه موضوعا للعبث والمزاح .

وحين اقترقنا فذهب هو إلى دار العلوم وبقيت أنا في  
الأزهر ، ثم أبى الله إلا أن يجمعنا ، ولما يمض على فراقنا  
إلا أقل الوقت وأقصره ، فإذا نحن نلتقى في غرفات الجامعة  
المصرية القديمة ، نسمع للأساتذة المحدثين من المصريين  
والأجانب ، ثم لا نكاد نخرج من غرفات الدرس ، حتى  
يتصل بيننا الحديث كلما كان يتصل بيننا في الأزهر ، وإذا  
دروس الجامعة تفتح لحوارنا آفاقا طريفة ، كنا نستلذ بها  
ونستحبها ، فتمضى في الحوار وننسى له كل شيء وكل إنسان .  
نقطع الآماد البعيدة ماشين وقد أنسينا جهد المشى ، وصرفنا  
عما حولنا من حركة الحياة واضطراب الأحياء ، وقد ننتهى  
إلى مكان نأوى إليه ثم ننسى أنفسنا فيه ؛ قد صُرفنا عن هذا  
المكان وعن أنفسنا ، وعمن يحيط بنا من الناس ، إلى ما نحن  
فيه من حوار ، وإلى ما نستمتع به من لذة الحديث .

ثم نفترق مرة أخرى ، فيذهب هو إلى مصر العليا  
مشتغلاً بالتعليم . وأذهب أنا إلى ما وراء البحر مشتغلاً  
بالتعلم ، وينقطع الحوار بيننا ، وتنقطع الرسائل أيضاً ، ويكاد  
يخيل إلى كل واحد منا أنه قد نسي صاحبه ، وأن صاحبه قد  
نسيه . وتمضي على ذلك الأعوام الطوال ، ثم نلتقي ، ولا  
نكاد نأخذ في الحديث حتى يتبين كل واحد منا أنه لم ينس  
صاحبه قط ، وكأنما التقينا أمس واستأنقنا لقاءنا اليوم ،  
فنحن نصل حديثاً لم نقطعه إلا أمس ، وإن كنا قد قطعناه  
منذ أعوام طوال .

ثم يريد الله أن يجمعنا بعد الافتراق مرة أخرى ، فإذا  
نحن في الجامعة المصرية الجديدة نعمل معاً في التعليم ، بعد أن  
كنا نشتغل معاً في التعلم . وإذا أحاديثنا تتصل في الجامعة  
الجديدة ، كما كانت تتصل في الجامعة القديمة ، وكما كانت  
تتصل في الأزهر الشريف ، وإذا الأمر يتجاوز بيننا اتصال  
الأحاديث ، فيجد كل منا لذة في أن يختلف إلى بعض ما يلقي  
صاحبه من دروس ، ويشارك فيما يثير بين الطلاب من مناقشة  
أو حوار .

ثم تفرق الأيام بيننا — أستغفر الله — تحاول الأيام أن تفرق بيننا فلا تستطيع . أخرج أنا من الجامعة وألزم دارى حيناً ، وأشتغل بالسياسة العنيفة حيناً آخر ، ولكنى ألقى صاحبي أكثر مما كنت ألقاه قبل المحنة ، ويتصل الحديث بيننا أكثر مما كان يتصل قبل الأزمة . ثم أُعاد إلى الجامعة ، وإذا نحن نعود إلى الاشتراك في الدرس ، ونغضى فيما كنا فيه من الجدل والحوار .

وكان النحو أشد موضوعات الحديث خطراً ، وأكثرها جريئاً فيما كان يكون بيننا من حوار . ضقنا بأصوله القديمة منذ عهد الأزهر ، وأخذنا ننكر هذه الأصول أيام الجامعة القديمة ، وأخذنا نلتمس له أصولاً جديدة منذ التقينا في الجامعة الجديدة .

فأنت ترى أنى حين أقدم إليك هذا الكتاب الجديد ؛ إنما أقدم إليك صديقاً قديماً عرفته منذ عهد بعيد جداً ، ورأيتَه يشب وينمو ويتطور حتى تم خلقه واستوى كما تراه في هذه الصفحات .

ولعلك بعد هذا تصدقني إن قلت لك إني الآن حائر  
لا أدري أي الطريقين آخذ؟ وأي الطريقين أدع؟ طريق  
الحديث عن الكتاب، أم طريق الحديث عن صاحب  
الكتاب؟ فكلاهما يملأ نفسي حباً وحناناً وإعجاباً.

فأما الكتاب، فلأنه لا يصور الحياة العقلية لصاحبه  
وحده منذ أكثر من ربع قرن، ولكنه يصور طرفاً من  
أطراف الحياة العقلية لي أنا أيضاً، وإن صاحبي يقرأ على  
الباب من أبواب الكتاب فلا أسمع صوت صاحبي، وإنما  
أسمع صوت إبراهيم، ولا أتجه إلى ما أسمع كما تعودت أن  
أتجه لما يقرأ على من الكتب والأسفار، وإنما أتجه له  
في شيء من الاستعداد للمناقشة والتهيو للجدل والتأهب للنقد  
الشديد، كأني أناقش إبراهيم في مسألة من مسائل النحو،  
وما أعرف أنني لقيته فأطلت لقاءه ثم افترقنا دون أن نلم  
بطرف من أطراف النحو ونخوض في مسألة من مسائله،  
ونستحضر قول هذا النحوي أو ذاك، ونحاول تخريج هذا  
البيت أو ذاك.

(ح)



والكتاب بعد هذا أو قبل هذا يصور صاحبه أدق  
تصوير وأصدق وأبرعه ، فهو برئ كل البراءة من هذا  
الغلو الذي يمتاز به المجددون في لون من ألوان العلم ، فإذا هم  
يفتنون بأرائهم الجديدة ، ويفنون فيها ، وينسون كل قصد  
واعتماد ، ويتكلفون في سبيل ذلك ما يقبل وما لا يقبل من  
الرأى ، ويحملون في سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق من  
التبعات .

والكتاب برئ من هذا كله ، يزينه قصد صاحبه  
وإثاره للاعتماد . تقرأ فلا تحس أنك تُنزع من النحو  
القديم انتزاعاً ، وإنما تحس أنك تمن فيه إمعاناً ، وكأنك  
تقرأ كتب الأئمة المتقدمين من أعلام البصرة ، أو الكوفة  
أو بغداد .

علم غزير صحيح بأصول اللغة وفروعها ، ومذاهب  
النحويين والأدباء في فهم هذه الأصول والفروع وتخريجها ،  
وتحدث عن ذلك بلغة الرجل الذي ألفه وتعوده ، فليس  
متكلفاً له ولا محدثاً فيه ، وتواضع لا يفرضه صاحبه على نفسه

ولا يحتال في الازديان به ، وإنما هو صورة للطبع ومكون  
من مكونات المزاج .

تواضع تحسه ، فيفيض في نفسك حب صاحبه ، والميل  
إليه ، والإعجاب به ، والثقة بما يلقي إليك من الحديث .  
وأمانة في الرأي والنقل جميعاً ، لا تكاد تمضي في الكتاب  
حتى تحسها قوية جليلة ، كأقوى ما تكون الأمانة وأجلها  
وإذا أنت ترى المؤلف يحاسب نفسه أشد الحساب كلما خطر  
له رأى . وكلما جرى قلمه بكلمة ، أبغض الناس للتزيد ،  
وأشد الناس انصرافاً عن هذا التهاون مع النفس ، الذي يبيع  
لكثير من الناس مالا يباح للعالم الخلق بهذا الوصف .

ثم فقه بعد هذا كله بدقائق النحو ودخائله ، يجعله  
يضطرب في هذا العلم العويص الملتوى ، كما يضطرب الرجل  
في بيت ألفه منذ نشأته ، وعرف زواياه وخفائيه ، فهو  
لا يخطو إلا عن علم ، ولا يتقدم إلا عن بصيرة .

وهذا الفقه لدقائق النحو ودخائله ، هو الذي ملأ قلب  
إبراهيم حباً للنحو ، وكلفاً به ، وحينئذ إليه ، وعطفاً عليه ،

فهو يدرس النحو رفيقاً به متلطفاً في الدرس ، كأنه يخاف أن يؤذيه أو يشق عليه ، وكأنه يكره أن يناله بما لا يحب .

يقف عند مسألة من مسائل النحو ، فيطيل النظر فيها مشغولاً بها ، ثم إذا أَرْضَى فيها حاجته عاد إليها فأطال الوقوف عندها والنظر فيها ، متهماً فهمه الأول ، ملتصقاً بأشياء يشفق أن تكون قد غابت عنه ، أو خفيت عليه . ثم هو يقلب المسألة على وجوهها المختلفة ، وأشكالها المتباينة ، ثم هو لا يَرْضَى بكتاب أو كتابين أو كتب ، ولا يقنع فيها برأى إمام أو إمامين أو أئمة ، ولكنه يستقصي ويعمن في الاستقصاء . وإذا المسألة التي يدرسها من مسائل النحو قد أصبحت عنده كأنها حيا له تاريخه ، فهو يتتبع هذا التاريخ من أصوله . يرجع إلى أصل هذه المسألة كيف نشأت ، وكيف تصورها النحويون الأولون ، وكيف تحدت منهم إلى كتب الأجيال المختلفة من النحاة ، وبأى طور مرت عند ذلك الجيل ، وإلى أى طور انتقلت عند هذا الجيل ، حتى إذا أَرْضَى نفسه من هذا الاستقصاء ، وما أصعب رضا نفسه ،

(ك)

عاد إلى المسألة يدرسها من جديد كأنه لم يدرسها من قبل ،  
ولكنه في هذه المرة لا يلتصق في كتب النحويين ، وإنما  
في كلام العرب على اختلاف أجيالهم . يوازن بين ألوان هذا  
الكلام ويستخلص منه ما يرى أنه الحق ، وإذا هو يتفق  
مع النحويين حيناً ويخالفهم أحياناً ، وليس هذا الكتاب  
إلا تصويراً لبعض النتائج التي وصل إليها من هذا الدرس  
المزدوج .

وإنى لمعجب أشد الإعجاب بهذا الصبر الطويل ، وهذا  
الجلد الذي لا أعرف له نظيراً في هذا الجيل الذي نعيش فيه ،  
فليس يسيراً أن تعاشر النحويين فتطيل عشتهم ، فضلاً عن  
أن تنفق حياتك كلها في مصاحبتهم ، والتحدث إليهم ،  
والتحدث عنهم .

والناس بعد يضيقون بالنحو ويتبرمون بحديثه ، فما بالك  
برجل قد أصبح يضيق بكل شيء لا يتصل بالنحو ، ويتبرم  
بكل حديث لا يمس النحو من قريب أو بعيد ، حتى سميناها  
فيها بيننا بالفرار .

أنا معجب بهذا الصبر ، ولكن إعجابي بنتائجه عظيم  
أيضاً ، وما رأيك في رجل يستطيع أن يؤرخ نشأة النثر العربي  
يستخلص تاريخه لهذا الفن الأدبي العظيم من درس النحو  
وإطالة النظر فيه ، ويصل إلى نتائج باهرة حقاً ؟ وما رأيك  
في رجل يطيل النظر في النحو ، فإذا هو يرُد تفكير النحويين  
إلى تفكير الفلاسفة والمتكلمين من المسامين ، وإذا هو يرد  
قصور النحو وتقصيره إلى علته الطبيعية ، وهي أن النحويين  
قد فلسفوا النحو ، فقصروا به عن أن يذوق جمال العربية ،  
ويصور ذوقها كما كان ينبغي أن يصور .

وهو لا يتحدث إليك بهذا كله حديث المدعى بغير دليل ،  
أو المتكبر من غير طائل ، ولكنه أمين دقيق ، لا يقول إلا  
عن علم ، ولا يرى إلا عن بصيرة ؛ دليله معه دائماً ، ودليله  
ملزم دائماً ، لأنه لا يحاول أن يقنعك إلا بعد أن يفرغ من  
إقناع نفسه ، وليس إقناعه نفسه بالشئ اليسير .

أليس هذا كله خليفاً أن يجب إلى الحديث عن هذا  
الكتاب وتقديمه إليك ؟

أليس هذا كله خليقاً أن يصرفنى إلى الكتاب عن صاحبه ؟ ولكن صاحب الكتاب كما قلت ملامٌ أشد الملاءمة لكتابه ؛ لا ترى فى الكتاب خصلة إلا وهى مستمدة من نفس صاحبه ، ملائمة لطبعه ، مشتقة من مزاجه ، فهو أبعد الناس عن التكلف ، وأبغضهم للتصنع ، وأشدّهم ترفعا عن الرياء .

ما فى الكتاب من صدق اللهجة ، صورة ما فى صاحبه من صدق الخلق . وما فى الكتاب من الدقة والأمانة ، صورة ما فى صاحبه من الدقة والوفاء . وما فى الكتاب من القصد والاعتدال ، صورة ما فى نفس صاحبه من التواضع الذى يكرم به الرجل ، ويملاً قلوب الذين يعرفونه حبا وإكباراً ووفاء . أقبل على إبراهيم ذات يوم ، فقرأ على فصولا من كتابه هذا . فأبيت عليه إلا أن يمضى فى القراءة من الغد ، وما زلنا كذلك ، يقرأ وأسمع وأناقش ، حتى فرغنا من قراءة الكتاب ولم يكن يعرف له اسما ، فاقترحت عليه هذا الاسم الذى رسمه به « إحياء النحو » فأكبره واستكثره وأشفق منه ،

وألححت أنا فيه ، فلم يستطع لى خلافا .  
وأنا أتصور إحياء النحو على وجهين : أحدهما أن يقربه  
النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويسيقه ويتمثله ، ويجرى  
عليه تفكيره إذا فكر ، ولسانه إذا تكلم ، وقلمه إذا كتب .  
والآخر أن تشيع فيه هذه القوة التي تجلب إلى النفوس درسه  
ومناقشة مسائله ، والجدال في أصوله وفروعه ، وتضطرب الناس  
إلى أن يعنوا به بعد أن أهملوه ، ويخوضوا فيه بعد أن  
أعرضوا عنه .

وأشهد لقد وفق إبراهيم إلى إحياء النحو على هذين  
الوجهين . فانظر في هذا الكتاب فسترى أن إبراهيم لا يعرض  
عليك علماً ميتاً ، وإنما يعرض عليك علماً حياً يبعث الحياة  
في الذوق .

ثم ستري أن إبراهيم لا يعرض عليك مسائل جامدة  
هامدة ، ولكنه يفتح للنحويين طريقاً إن سلكوها فلن يحبوا  
النحو وحده ، ولكنهم سيحيون معه الأدب العربي أيضاً .  
ثم انتظر بهذا الكتاب وقتاً قصيراً ، فستري أنني لم

أغل ولم اسرف ، حين زعمت في أول هذا الحديث أنه  
سيحفظ قوما ، وسيدفعهم إلى الخصومة والجدال دفعا .

فالكاتب كما ترى ، يحبي النحو لأنه يصلحه ، ويحبي  
النحو لأنه ينبه إليه من اطمأنوا إلى الغفلة عنه ، وحسبك  
بهذا إحياء .

أرأيت أنى كنت خليقا أن أقف موقف الحائر ! لا أدري  
أأتحدث عن الكتاب أم عن صاحبه ، وإني خليق الآن بعد  
أن بينت لك مصدر هذه الحيرة أن أكتفى من تقديم هذا  
الكتاب إليك ، بأن أسجل بهذه الكلمة القصيرة القاصرة  
ما يملأ قلبي من حب لإبراهيم ، وما يملأ عقلي من إعجاب  
بكتاب إبراهيم ؟

طه مـين



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا بحث من النحو ، عكفت عليه سبع سنين وأقدمه إليك في صفحات . سبع سنين من أوسط أيام العمر وأحراها بالعمل ، صدقتُ فيها الاعتكاف إلى النحو ، وإلى ما يتصل بمباحثه ، وأضعت له من حق الصديق والأهل والولد والنفس جميعاً .

كان سبيل النحو موحشاً شاقاً ، وكان الإيغال فيه ينقض قواى تقضا ، ويزيدنى من الناس بعدا ، ومن التقلب فى هذه الدنيا حرمانا . ولكن أملأً كان يزجيني ويحدو بى فى هذه السبيل الموحشة ؛ أطمع أن أغير منهج البحث النحوى للغة العربية ، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو ، وأبدلهم منه أصولاً سهلة يسيرة ، تقربهم من العربية ، وتهديهم إلى حظ من الفقه بأساليبها .

كانت بارقات الأمل — خادعة وصادقة — تدفعنى فى

(ب)

سبيلي ، غير راحة ولا وانية . فليكن ما أنفق من هذا العمر  
ذخراً في أعمار الدارسين من بعد ، ولتكن شيخوخة هذا  
الشيخ فدى للعربية ؛ أن تُقَرَّب من طالبيها ، وَيُمَهَّد السبيل  
لتنعيمها .

اتصلت بدراسة النحو في كل معاهده التي يدرس فيها  
بمصر ، وكان اتصالاً طويلاً وثيقاً ؛ ورأيت عارضة واحدة ،  
لا يكاد يختص بها معهد دون معهد ، ولا تمتاز بها دراسة  
عن دراسة ، هي التبرم بالنحو ، والضجر بقواعده ، وضيق  
الصدر بتحصيله ؛ على أن ذلك من داء النحو قديماً ، ولأجله  
ألف « التسهيل » و « التوضيح » ، و « التقريب » ، واصطنع  
النظم لحفظ ضوابطه ، وتقيد شوارده .

والنحو مع هذا لا يعطيك عند المشكلة ، القول البات ،  
والحكم الفاصل . قد يهدي في سهل القول ، من رفع فاعل  
ونصب مفعول ، فإذا عرض أسلوب جديد ، أو موضع  
دقيق ، لم يسمعك النحو بالقول الفصل ، واختلاف الأقوال ،  
واضطراب الآراء ، وكثرة الجدل التي لا تنتهي إلى فصل

(ج)

ولاحكم ، كل ذلك قد أفسد النحو أو كاد ، فلم يكن الميزان الصالح لتقدير الكلام ، وتميز صحيح القول من فاسده .

وإذا جئنا إلى مدارس الناشئين ، كانت المشكلة في تعليمهم النحو أشد وأكد ؛ فهو على ما تعلم من بُعد تناوله ، وصعوبة مباحثه ، قد جعل المفتاح إلى تعلم العربية ، وكتب على الناشئ أن يأخذ بنصيبه منه ، منذ الخطوة الأولى في التعليم الابتدائي والثانوي . واختير له جملة من القواعد ، قدر أنها تفي بما يحتاج إليه لأصلاح الكلام وتقويم اللسان ، ثم كانت خصومة هادئة قاسية بين طبيعة التلميذ ، وبين هذا المنهاج والقائمين عليه . أما التلميذ فقد بذل الجهد وأعيا ، ولم يبلغ من تعلم العربية أربا . وأما أصحاب المنهج ، فقد رأوا أن يزيدوا في منهجهم ، ويكملوا للتلميذ حظه من القواعد ، فلا سبيل له إلى العربية غير هذا النحو ؛ فزادوا في هوامش كتبهم ما يكمل القواعد ويتم الشروط — ثم تسلت هذه الزيادات إلى جوف الكتاب فضخم ، وزاد المنهاج المقروض — ولكن طبيعة التلميذ الصادقة في إباء هذه القواعد ، والتأمل بحفظها ، لم تخف

(د)

شهادتها ، ولم يستطع جردها ، فكانت ثورة على المنهاج  
وأصحابه ، وخفف منه ، وانتقص من مسائله ، والداء لم يبرأ ،  
والعوارض لم تتغير ، وتكررت الشكوى ، وعادوا على المنهاج  
بالنقص ، حتى كان المقرر قواعد من النحو مختلفة ، كأنما هي  
نماذج يراد بها عرض نوع من مسائله .

قد كان في هذا ، الشهادة الصريحة بفشل هذا النحو  
أن يكون السبيل إلى تعلم العربية ، والمفتاح لبابها .

ولقد بذل في تهوين النحو جهود مجيدة ، واصطنعت  
أصول التعليم اصطناعا بارعا ، ليكون قريبا واضحا ؛ على أنه  
لم يتجه أحد إلى القواعد نفسها ، وإلى طريقة وضعها ، فيسأل :  
الآ يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو  
وتدوين قواعده ، وأن يكون الدواء في تبديل منهج البحث  
النحوي للغة العربية ؟

هذا السؤال هو الذي بدا لي ، وهو الذي شغلني

جوابه طويلا .

ولقد تميز عندي نوعان من القواعد : نوع لا تجدد في

(٨)

تعليمه عسراً ، ولا في التزامه عناء ، ولا ترى خلاف النحاة فيه كبيراً ، وذلك كالعدد ورعاية أحكامه في مثل : قال رجلان ، والرجلان قالاً . وقال رجال ، والرجال قالوا . فع دقة الحكم في رعاية العدد ، واختلافه تبعاً لموضع الاسم والفعل من الجملة ، لا تجدد العناء في تصوره ، ولا المزلة في استعماله . ونوع آخر لا يسهل درسه ، ولا يؤمن الزلل فيه ، وقد يكثر عنده خلاف النحاة ، ويشتد جدلهم ، كرفع الاسم أو نصبه في مواضع من الكلام .

ثم رأيت علامات العدد تصوّر جزءاً من المعنى يحسه المتكلم حين يتكلم ، ويدركه السامع حين يسمع . أما علامات الإعراب ، فقلّ أن ترى لاختلافها أثراً في تصوير المعنى ، وقلّ أن نشعرنا النحاة بفرق بين أن تنصب أو ترفع ؛ ولو أنه تبع هذا التبديل في الإعراب تبديل في المعنى ، لكان ذلك هو الحكم بين النحاة فيما اختلفوا فيه ، ولكان هو الهادى للمتكلم أن يتبع في كلامه وجهاً من الإعراب .

فلو أن حركات الإعراب كانت دوالاً على شيء في

(د)

الكلام ، وكان لها أثر في تصوير المعنى ، يحسه المتكلم ويدرك ما فيه من الإشارة ومن وجه الدلالة ، لما كان الإعراب موضع هذا الخلاف بين النحاة ، ولا كان تعامله بهذه المكانة من الصعوبة ، وزواله بتلك المنزلة من السرعة .

ألهذه العلامات الإعرابية معان تشير إليها في القول ؟  
أتصور شيئاً مما في نفس المتكلم ، وتؤدي به إلى ذهن السامع ؟  
وما هي هذه المعاني ؟؟ .

والعربية — لغة القصد والإيجاز — أتلتزم علامات الإعراب على غير فائدة في المعنى ، ولا أثر في تصويره ؟  
أقد أطلت تتبع الكلام ، أبحث عن معاني لهذه العلامات الإعرابية ، ولقد هداني الله — وله خالص الإخبات والشكر — إلى شيء أراه قريباً واضحاً ، وأبادر إليك الآن بتلخيصه :

(١) إن الرفع علم الإسناد ، ودليل أن الكلمة يتحدث عنها .

(٢) إن الجر علم الإضافة ، سواء أكانت بحرف أم بغير حرف .

(ز)

(٣) إن الفتحة ليست بعلم على إعراب ، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة ، التي يحب العرب أن يَحْتَمُوا بها كلماتهم ما لم يلقَهم عنها لافت ؛ فهي بمنزلة السكون في لغتنا الدارجة .

(٤) إن علامات الإعراب في الاسم لا تخرج عن هذا إلا في بناء ، أو نوع من الاتباع ، وقد بيناه أيضاً .

فهذا جماع أحكام الإعراب ؛ ولقد تتبعت أبواب النحو باباً باباً ، واعتبرتها بهذا الأصل القريب اليسير ، فصح أمره ، واضطرد فيها حكمه .

ثم زدت في تتبع هذا الأصل ، فتجاوزت حركات الإعراب ، ودرست التنوين على أنه منبئ عن معنى في الكلام ، فصح لي الحكم واستقام ، وبدلت قواعد « ما لا ينصرف » ، ووضعت للباب أصولاً أيسر وأنفذ في العربية مما رسم النحاة للباب . ولا أوجل عنك إجمال هذه الأصول أيضاً :

(١) إن التنوين علم التنكير .

(٢) لك في كل علم ألا تنونه ، وإنما تلحقه التنوين

(ح)

إذا كان فيه حظ من التنكير .

(٣) لا تُحرم الصفة التنوين حتى يكون لها حظ من

التعريف .

والبحت الذي أقدمه إليك الآن ، هو شرح موجز  
لهذه الفكرة ، ودرس لها في أبواب النحو المختلفة ، وبيان  
لما رأينا من الأدلة لتأييدها .

وكنت أريد أن أشكر لصديقي الدكتور طه حسين ،  
وأذكر فضله في إتمام البحث وإخراج الكتاب ؛ ولكنه  
آثر أن يقدم الكتاب ، وانزلق إلى الشناء على صاحبه ،  
فأجرت أن أتكلم .

وحق على أن أشكر تلاميذي الذين عاونوني في شيء  
من المباحث ، وإن لم أملك الآن أن أسميهم وأعمالهم .  
وأحمد الله حمداً ملؤه التوحيد والتمجيد والشكر .

---